# TOPICAL ISSUES IN ARABIC AND ISLAMIC STUDIES:

*Essays in honour of* LATE PROFESSOR A.A GWANDU

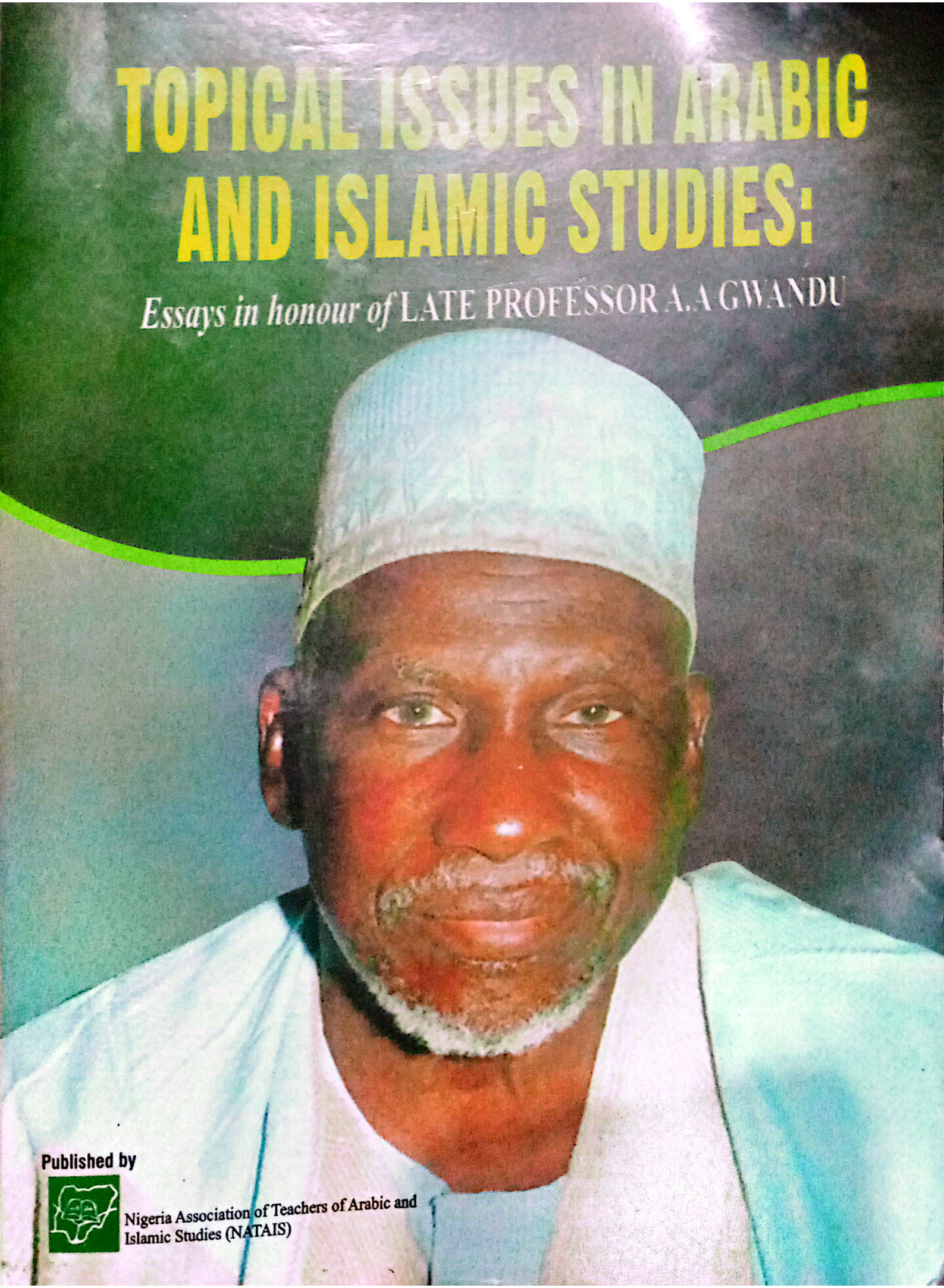

Published by

Nigeria Association of Teachers of Arabic and Islamic Studies (NATAIS)

© NATAIS, 2014

ISBN 978-066-390-9

*First Published*
Jumāda Al- Ūlā, 1435 A.H/ March 2014

Published by:
**Nigeria Association of Teachers of Arabic and Islamic Studies** (NATAIS)

Printed by
**Usmanu Danfodiyo University Press,**
Sokoto

# CHAPTER THIRTY EIGHT

## التعامل مع القرآن الكريم توجيهياتٌ علمية لِحمَلَته و مُفسِّريه في بلاد الهوسا

**الدكتور أحمد مرتضى**

قسم الدراسات الإسلامية والشريعة جامعة بايرو- كنو

بسم الله الرحمن الرحيم

و الصلاة و السلام على نبينا محمد و على آله و صحبه و سلم

**التقدمة:**

استمعتُ إلى شخصين كليهما يزعم أنه يقوم بتفسير كلام الله تعالى، فأُصبتُ بخناق! أما أحدهما فكان هو التالي للقرآن والمفسّر له معا. بدأ بالتلاوة، و فهمت فيما بعدُ أنه يقرأ نظرا من المصحف، ومضت عليه بضعة أيام يلحن ويكسر الآيات- ما شاء لفمه التفوّه به من الأخطاء الجسام-، ثم صُدفة سمعتُه يشرح ما قرأ من الآيات. فلم أتمالك نفسي حتى هَجمتُ عليه، وتمكنتُ من زجره و تمديده، و تمّ إغلاق هذا المتجر- نهاية الأمر! وأما الآخر فكان الذي يقوم بتلاوة الآيات المراد تفسيرها رجل عرف قدر علم التجويد، و روّض لسانه عليه، فهو قويم جدا بألفاظ القرآن، ومراعٍ غايةً لأشكال الغنن والمخارج و الإشمامات. و إنما المشكلة مع المفسر! حسبتُ -أولَ الأمر- أن له معاول فتّاكة لا تخطئ مخارج الألفاظ، و لا تأبى أن تقطع أوصال الحروف! فما هو بغريب أن تسمع هذا الرجل يقرأ القرآن محرّفا كلماته إلى أقصى حد؛ فالمجرور يعود مرفوعا على لسان المفسّر، ويتحول المنصوب مجزوما! فقد ضربتُ الكف بالكف لما سمعتُ هذا النمط من التحايل واللف و الدوران باسم التفسير من العلاّمة! ولكن العجب أنه لا يستفيد في تقويم لسانه من هذه التلاوة الحُلوة التي لو سابق بها التالي في المسابقات الدولية لكان من الفائزين الأوائل! ولكن صاحبه المفسر قد أكلت العُجمة لسانه، وخالط الكِبرُ عقلَه فهو دائما عاجز عن أن يُعفي نفسه عن الاقتحام في هذه المهالك!

وإنما ذكرتُ هذين المثالين أنموذجا لما يحدث في مجالس التفسير في بلادنا. الأمر الذي استحق بحق أن يطلق عليه "الفوضوية في التفسير"؛ هذا العلم العظيم الشأن! و كم أنا محبٌّ أن تقام لقاءات معقودة رأسا للتحاور العلمي مع المفسرين، لإشعارهم بثقل المسؤولية الجسيمة الملقاة على عواتقهم!

و معلوم أن الكلام يتشرف بشرف المتكلم به، و القرآن كلام الله تعالى، "لا ريب فيه، هدى للمتقين". و من هنا يعد الإقدام على تفسير كلام الله تعالى من أعظم الأمور. فلا بد من إعادة النظر إليه مرات ومرات.

وتهدف هذه المباحث الى شرح بعض التوجيهات التي قد تفيد المتصدر لتفسير القرآن في هذه البلاد. ويتكون البحث من اربعة مباحث. المبحث الأول لمحة عن تاريخ التفسير في بلاد الهوسا. و قد خصصنا هذه البلاد فقط، لتتم التغطية على وجه شامل. وتطرق المبحث الثاني المشاكل والفوضوية التي تحيط بمجال التفسير في هذه البلاد، والمبحث الثالث معقود لإلقاء الضوء على شخصية المفسر المعاصر. و تضمن المبحث الرابع بعض توجيهات ضابطة لمعرفة القرآن، ثم تلتْه خاتمة لإجمال أهم النقاط.

وقدم هذا البحث لتكريم الفرفيسور أبوبكر غندو- الذي أفنى عمره كله في الخدمة للعلم، و خاصة القرآن الكريم وسائر الدراسات الإسلامية و العلوم العربية في نيجيريا عامة، وبلاد الهوسا خاصة. و ندعو الله سبحانه و تعالى أن يغفر له و يرحمه، و يجعله جنة الفردوس مثواه.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب

## المبحث الأول

## جذور درس التفسير في بلاد الهوسا

لا يقلّ اعتناء العلماء الأفارقة بالقرآن حفظا و تدبرا و تفسيرا عن الاعتناء الذي أولاه علماء سائر أقطار المعمورة. صحيح أن أقلام هذه المنطقة لم تناول كتاب الله بشئ كثير من قبيل فنّ التفسير، غير أنهم أسدوا خدمة لا تحذف عن ذاكرة التاريخ. إذ لم تقف شِفاه حذاق العلماء في مدارس العلم ومجالسه -لحظة- عن قراءة ما كتبه السابقون، ودراسته دراسة واعية، يجد حلاوتها طلاب العلم في مستقبل حياتهم العلمية.

ولا بأس أن نضرب مثلا بما في أيدينا من أخبار مدينة كنو-حرسها الله-. حيث يذكر مؤرخون وفود جمعاء غفيرة من العلماء الفاقهين بالتفسير من أنحاء بلاد التكرور إلى هذه المدينة. و أقدم ما يُذكر بالتحديد يرجع إلى عهد السلطان أبي بكر كادو (1565-1573م)[1]. كما يُقرر ذكر السلطان باوا بن محمد رمفا (1660-1700م) بوفود شيخ مغربي باسم الشيخ عبد الله، لم تحدد شخصته جيدا، فاهتم بالتفسير بعد صلاة الصبح، إلى أن استدعاه السلطان ليستمر بدرس التفسير في القصر الملكي.

ولم يقف اهتمام السلاطين بالمفسرين على أولئك العلماء، بل قد توارث الأمراء و السلاطين ذلك، كابرا عن كابر. فقد وجد بعض المفسرين المجال للتدريس في حارة مدابو. كان منهم الشيخ طاهر، و الشيخ بندو، في عهد السلطان محمد تنغارو (1731-1742م).

على أن بعضا من العلماء كانوا يقومون بتفسير كتاب الله في شكل درس جماعي أو تلقين فردي يأخذ طلاب العلم دروسا في كتب تفسيرية مخصوصة. و أيا ما كان فإنهم يعقدون هذه المجالس في ساحات بيوتهم و الدهاليز والمساجد.

ومن هنا اشتهرت في بواكير القرن الرابع عشر الهجري الموافق للتاسع عشر الميلادي مدارس خاصة للتفسير، أنجبت علماء عظام، كمدرسة الشيخ أحمد بن محمد بن الأمين، و هو ابن خال وابن عم للشيخ عثمان بن فودي، أخذ عنه التفسير كما تخرّج ابن فودي في فنّ التفسير في مدرسة الشيخ رمضان بن أحمد في زَنْفَرا. هي مدرسة قديمة، لها مساعدة في تكوين شخصية شيخي الجهاد: عثمان وعبد الله-رحمة الله عليهما-. قال الشيخ عبد ابن فودي إن الشيخ عثمان:"سمع منه تفسير القرآن من أوله إلى آخره"، رافقه في ذلك أخوه الشيخ عبد الله، إلا أنه كما قال"لكني إذ ذاك لم أشتغل بعلم التفسير"[2].

وتسلّم الشيخ عثمان و طلابه مسارح العلم في بلاد الهوسا. فقدموا خدمات غير قليلة إلى العلم و الثقافة الإسلامية في هذه الديار. و بما أن تدوين التاريخ قد قلّ الاهتمام به لدى السابقين من علمائنا، الأمر الذي سبب ضياع الكثير من أخبار العلماء و معاهدهم، ولكن شيوخ الجهاد قد أحيوا كثيرا مما ضاع، و عَكَسوا لنا المنهجية المتبعة لتحصيل العلم، و نوعية الكتب التي تدرس في كل فنّ، مما نأخذ صورة صادقة عن منهج قديم لعلماء بلاد الهوسا. ففي التفسير مثلا، ذكر الشيخ عبد الله أنه أخذ من الشيخ عثمان:"التفسير من أول الفاتحة إلى آخر القرآن مرارا"، وتوّج الكلام بقوله:"لا أعرف قدرها". فلم يعين تفسيرا. و كذلك الشيخ محمد بلّ، فقد ذكر أنواعا من التفاسير التي جردها عند والده الشيخ عثمان. قال:"أخذت تفسير كتاب الله من والدي سماعا وقراءة. وطالعت عليه أنواع البيضاوي بأسره، و لباب التأويل، و مدراك التنزيل، وتفسير البغوي، وأحكام التنزيل، وتتبعت مواضع التفسير في السنن، ولاسيما كتاب الاكتفاء للكلاعي"[3].

فهذه مجالس لتعليم الخاصة. وليس كل العلماء الأقدمين في هذه المنطقة يقدرون على فسح المجال للطلاب أن يأخذوا منهم التفسير، أو يعقدوا مجالس للعامة ليسمعوا كلام الله، لعدة أسباب اعتقدوها. و ربما قد يستند هذا العزوف عن التفسير إلى بعض الأوهام التي ترسبت على الأوساط العلمية آنذاك. فمنها المكانة التي يرتادها علم التفسير بين العلوم، فهناك شروط غليظة محيطة بهذا العلم،

لا تترك المجال لكل أحد من التجرُّء على الاقتحام فيه. فانكسرت قلوب الطلاب في المنطقة عن تناول علم التفسير. و ازداد الطين بلّة أنْ نَفَخَ بعض الناس نفخة أوهمت بأن تفسير القرآن يُسبّب القحط، و يجلب الفتن. وبل قد بلغ الوهمُ ببعض قصار النظر في العلم حتى أشاعوا أن التفسير إنما يجوز فقط من باب التبرّك، لأن حقائقه لا تُدرك، و من ثمّ يجوز -في رأيهم- التصدي له في البيداء فقط، لا في القرى. وحتى إن جاز التعرج عليه، فإنما يجوز للشيخ المُسن فقط، ولا يسمح طرفة عين للشاب أن يشتغل به، وإن كان عالما.

كل هذه أوهام مرعبة، يظهر أن الغرض منها هو الحيلولة-بقصد أو بغير قصد- دون تفهم كتاب الله، وطبعا قد أقلقت الشيخ عثمان، وهو معروف بعدم المهادنة مع البدع وأصحابها، فتعرض لها بالنقض و الرد. و بيّن بطلانها وكونها من الوهم بمكان مكين[4].

المهم أن مثل هذا الوهم والزيغ الفكري لم يجد منفذا إلى أفهام شيوخ الجهاد، فقد درسوا التفسير، ولقنوه لطلابهم، و جمعوا العوام لتفهيمهم كتاب الله، و حضوا سائر علماء البلاد على عقد مجالس تفسيرية تخص العامة. و الثابت شيوخ الجهاد كانوا يتروكون الاشتغال بطلب سائر العلوم إلا التفسير إذا استهل شهر رمضان، حيث كان للشيخ عثمان مجلس خاص- على ما يذكره الشيخ محمد بلّ-رحمه الله تعالى-:"أهلّ رمضان فأقبلنا إلى استماع التفسير"[5]. وهذا التفسير لا يتساهل به الشيخ عثمان حتى في غيابه. ذكر الشيخ عبد الله بن القاضي الحاج أن:"شيخ الشيوخ عثمان عرض ما منعه من الخروج إلى الجماعة لتفسير القرآن الكريم في رمضان، فأقام ولده هذا مقامه، فجلس على السرير فحضر من كان يحضره من الشيخ الكبار، ففسر لهم مثل تفسير والده حرفا بحرف، فجعلوا يتعجبون من ذلك، فشاع أمره، و كثر ذكره على ألسنتهم"[6].

ومن هنا ينحصر علماء الأفريقية-بالأخص غربها- اجتهاداتهم التدريسية في شهر رمضان على تفسير القرآن، يعكفون في كل الأصقاع على ترجمة معانيه لحاضري مجالسهم باللغات المحلية. وقد أصبحت هذا عادة قديمة معروفة. و لكن أخشى أن يتوجس بعض البسطاء أن هذه بدعة لا أصل لها. فالأصل للتفسير الرمضاني يرجع رأسا إلى حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم:"يَلقاه جبريلُ وكان يلقاه في كلّ ليلة من رمضان فيُدارسُه القرآن". و في لفظ:"وكان جبريلُ- عليه السَّلام- يلقاه كلّ ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم القرآن"[7]. و فيما روته عائشة عن فاطمة-رضي الله عنهما-:"أن جبريل كان يعارضه صلى الله عليه وسلم بالقرآن كل سنة مرة، وإنه قد عارضني به العام مرتين، ولا أرى الأجل إلا قد اقترب"[8].- و علق الحافظ ابن حجر على هذا

الحديث قائلا:"فإن قيل: المقصود تجويد الحفظ، قلنا الحفظ كان حاصلا، والزيادة فيه تحصل ببعض المجالس"[9].

ولا تعدم مجالس التفسير في رمضان أصلا أيضا فيما كان يفعله بعض العلماء السلف. فقد كان "ابن عباس يغشى الناس في رمضان، وهو أمير البصرة فما ينقضي الشهر حتى يفقههم"[10].

و كان هذا دأب السلف الصالح، حتى إن أبا حيان التميمي و حمزة الزيات كلاهما من كبار القراء "إذا كان شهر رمضان جاءا مع كل واحد منهما مصحفٌ، فيُمسِكان على الإمام الأعمش – وهو ممن جمع الله له بين الإمامة في الحديث والإمامة في القراءات- المصاحف، ويقرأ، ويجتمع الناس، ويسمعون قراءته، فأخذوا الحروف من قراءته"[11].

وقد أنتج مثل ذلك المنهج أعمالا جليلة في التفسير. "قال أبو العباس ثعلب:كان السبب في إملاء كتاب الفراء في "معاني القرآن"، أن عمر بن بُكير كان من أصحابه وكان منقطعا إلى الحسن بن سهل، فكتب إلى الفراء أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشئ بعد الشئ من القرآن، فلا يحضرني فيه جواب. فإن رأيت أن تجمع لي أصولا، أو تجعل في ذلك كتابا أرجع إليه، فعلتَ! فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتابا في القرآن. وجعل لهم يوما. فلما حضروا خرج إليهم، وكان في المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة. فالتفت إليه الفراء، فقال له: اقرأ بفاتحة الكتاب. ففسرها ثم مر في الكتاب كله، يقرأ الرجل، ويفسر الفراء. فقال أبو العباس: لم يعمل أحد قبله مثله، لا أحسب أن أحدا يزيد عليه"[12].

وقد عمل علماء بلاد الهوسا بهذه السُّنة و لم تَمُت، واستمرت المحافظة عليه كذلك بعد شيوخ الجهاد. و في صكتو تولى الشيخ عبد الله بن عثمان بن إسحاق إلقاء الدرس التفسيري في "المسجد في شهر رمضان، يحضره أمير المؤمنين وكبار العلماء"[13].

ذكر الدكتور علي أبوبكر معهدين اشتهرا بالتفسير، أحدهما في كنو، و الآخر في زاريا. أما الذي في كنو فيُعرف بـــ"معهد التفسير للحاج ناصر."- و استمر يقول:"كان الشيخ مَيْ زَوْرِي والحاج ناصر هما اللذان أنشآه، فكان الثاني يتلو على حين يقوم الأول بتفسير الآيات إلى لغة الحوصا".- و تعاقب أولاد و أحفاد لهذين الشيخين في إلقاء هذا الدرس إلى اليوم[14].

وأما المعهد المشهور بزاريا فيرجع تأسيسه إلى الشيخ ألفا عمر، و عقب عليه ابنه إلى أن عدت مرجعية المعهد إلى حفيده الشيخ محمد الثاني بن رضوان، "فأصبح من أكبر المعاهد في البلاد كلها. وكان يقوم بتفسير القرآن في رمضان أيضا، و تكثر الحشود المجتمعة حوله من المدينة و القرى المجاورة"[15].

ذكرت هذه النماذج من المجالس و المعاهد التفسيرية التي مضى على تأسيسها أكثر من نصف قرن، للدلالة على أن درس التفسير كان مُعتنى به على مدار السنة، يُلقى شفاها و قراءة من أحد الكتب القديمة؛ إمّا على طلبة العلم خاصة، و إما على عموم الناس، وبالأخص في شهر رمضان.

و لم ينتشر التفسير كتابة في هذه المنطقة كثيرا، و يصح أن أقول إن إنتاج الشيخ عبد الله بن فودي في التفسير المكتوب هو أقدم ما لدينا من التراث. وقد اكتفى جلّ العلماء بتفسير الجلالين، و ما شاكله من تفاسير المتقدمين كتفسير البيضاوي، و لم يروا حاجة إلى إنتاج كتاب تفسير آخر. و لكن علماء الجهاد لما أتوا رأوا ضرورة إصلاح مناهج الدراسة كلها، و صياغتها لتوافق قالب أرض الهوسا، أمزجة أهلها، و قراءاتهم. لذلك ساهم الشيخ عبد الله بن فودي بستة كتب. ثلاثة في منها في التفسير، و الثلاثة الأخرى في علوم القرآن. في التفسير له "ضياء التأويل بمعاني التنزيل"، و"كفاية ضعفاء السودان"، و"نيل السول في تفسير الرسول". كان هدفه في الكتاب الأول هو البسط الموجز للفنون الإسلامية، بما فيها القراءات و الاستنباطات الفقهية. وتوخي في الكتاب الثاني المذهب المالكي، ورواية ورش من غير تطويل. وأما الكتاب الثالث فقد حرص أن يجرد فيه الروايات الثابتة التي وردت عن النبي صلى الله عليه وسلمفي تفسير آيات القرآن، حسب ما ذكره الشيخ السيوطي في خاتمة كتاب الاتقان.

وألّف الشيخ عبد الله ابن فودي في علوم القرآن:"المفتاح للتفسير"، و"سلالة المفتاح"، و"الفرائد الجليلة وسائط الفوائد الجميلة". أما المفتاح فمنظومة ألفية في مباحث كتاب الاتقان، ثم اختصره في منظومة أخرى، وهي سلالة المفتاح. و تحدث عن منهجية طلب القرآن، وآداب القراءة في الفرائد معتمدا على كتاب الفوائد الجميلة للشيخ الشوشاوي.

وللشيخ محمد بلّ في التفسير مساهمتان- فيما وصل إليه بحثي- أولهما كتاب "غاية السول في تفاسير الرسول"، وثانيهما منظومة في موضوع الفاتحة و شرحها هو نفسه. و كذلك الشيخ سعد بن محمد البخاري من أحفاد الشيخ عثمان ابن فودي له كتاب في تفسير "سورة النصر".

و لم تزل تشتمل منهجية بعض المعاهد العلمية الكبيرة على تدريس التفسير للطلاب الأكفاء، والكتاب المدرَّس هو "تفسير الجلالين"، إلا في بعض المدارس في مُدن صكتو، و غَونْدو، وزمفرا- المدن التي أكثر علماء الجهاد التجوال فيها- حيث كان توآما الشيخ عبد الله في التفسير: "ضياء التأويل" و "كفاية ضعفاء السودان" يُدرّسان لحد الآن.

ويقال إن للشيخ أحمد التيجاني بن عثمان الكنوي (1916-1972) تفسرا مخطوطا طع فيه شوطا كبيرا[16]، ولكنه لم يكمله-على ما يبدو-، كما أنه لم يطبع, و كذلك الشيخ علي بن محمد الكوماسي له تفسير لم يكمله، ولا يزال مخطوطا أيضا[17].

وفي القرن العشرين نجمت فكرة ترجمة معاني القرآن الكريم كتابةً إلى اللغات المحلية في نيجيريا. و الشيخ سعاد زُنْغُر من الذين استقبلوا الفكرة في بلاد الهوسا. و قد بدأ الكتابة، و لكنه فيما يبدو لم يكمل. و المتأكد أنه رائد في تحويل الفكرة إلى العمل[18]. و ثم بعد بعقود تبلورت الفكرة و أنتج العلماء ترجمات في لغات اليوروبا و الهوسا، إلخ.

وبالنسبة لكتابة الترجمة بلغه الهوسا، فلم يُسبق فيها المجدد للسُّنة في ربوع نيجيريا الشيخ أبو بكر جُومي حيث ألّف تفسيرين، أحدهما باللغة العربية المعروف بـــ"رد الأذهان إلى معاني القرآن"، وثانيهما بلغة الهوسا المحلية-Tarjamar Ma'anonin Alkuran-. و هذا بالإضافة إلى ما كان يقوم به من دروس تفسيرية شفوية في شهر رمضان، و في غيره من الشهور. و قد تلقى التفسير عنه مباشرة، أو عن منهجه الكثير من علماء السنة في هذه البلاد. و بحق اعتمد أكثر مفسري أهل السنة على كتابيه، إلا ما يزاد عليه عند الإلقاء من الشروح والبيانات التي يقتضيها الحال.

ومن الآثار الحميدة لعمل الشيخ غومي-رحمه الله- أنه أثار بعض العلماء فأصدروا تفاسير بلغة الهوسا، لتُلبي متطلبات تلاميذهم، و تخدم وجهات نظرهم، و تساند أذواقهم. وكان منهم الشيخ ناصر كبر، زعيم الطريقة القادرية بشمال إفريقيا، أصدر تفسيره المسمى بـــ"إحسان المنان في إبراز خبايا القرآن: تفسير و ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغة الهوسا". و الظاهر أن هذا العمل نقل مباشر لما كان يقوم به الشيخ ناصر من تفسير القرآن بالقصر الملكي في شهر رمضان، إذ يوجد في صفحات التفسير دلائل كثيرة دالة بوضوح على أنه لم يتفرغ لكتابة التفسير كله!

وتتالت تفاسير مكتوبة بلغة الهوسا. و من أقومها من حيث اختيار الألفاظ الهوسوية ما قام به مجموعة من العلماء بمن فيهم الشيخ ناصر مصطفى-رحمه الله تعالى-، و الفرفيسور بللو سعيد على كتابة تفسير باسم"لباب البيان لمعاني القرآن بلغة الهوسا"[19]. و هناك ترجمات أخرى غير هذه.

## المبحث الثاني

## بلاد الهوسا و الفوضوية في التفسير

عجز بحثي أن يحدد الفترة التي تعتبر بداية الانفجار بالنسبة لمجالس التفسير في زُقاق بلاد الهوسا وجنباتها. والظاهر أن هذا الدرس- أول الأمر- لم يكن يجاوز القصر الملكي، أو المسجد الذي يُعيّنه أمير كل بلدة كما مرّ المثال عليه. و لكن مما لا ريب فيه أن مجالس التفسير في بلاد الهوسا، تتكاثر وبالأخص في رمضان، بحيث يقوم كل عالم بمجلس، و يلتف حوله ما شاء الله من المستمعين. و هذا التكاثر قد بلغ حدا يمكن أن يطلق عليه "فوضوية التفسير".

وتظهر الفوضوية إذا نظرنا إلى ضحالة أهلية بعضٍ من الذين يقومون بالتفسير، وإلى الركام المعرفي الذي يقدمونه للناس من غير تنقيح و لا تحقيق. ونحاول فيما يلي إلقاء ضوء على أنماط المفسرين في هده البلاد لتظهر الفوضوية المذكورة.

1-**التقليديون**: أَلِف علماء هذه البلاد تفسير القرآن الكريم في رمضان، يبدأ أكثرهم ثلاثة أيام بقيت من شعبان، وينتهون في اليوم السابع والعشرين من رمضان. وكثير منهم يقسمونه قسمين، ينتهون منهما في عامين، يفسرون النصف الأول ثلاثين حزبا (من البقرة إلى سورة الكهف) في عام، والنصف الآخر؛ الأحزاب الثلاثين الأخيرة (من الكهف إلى سورة الناس) في عام القادم. وقليل منهم كـ"الشيخ ناصر كَبر" هم الذين يقومون بتفسير القرآن كله في شهر رمضان[20]. والمقصود فقط هو تفسير ألفاظ القرآن وإتمام الحصة المخصوصة بذلك المجلس، ولا يكترثون بتفهيم المستمعين مقاصد الآيات أو ربطها بالواقع على وجه جلي. و يهمهم -في غالب الأمر- التوسيع في شرح القصص، حتى إن بعضهم يقرأ فصولا من التفاسير المعتنية بسرد القصص الطويلة.

2-**المتحررون**: تحرر بعض المفسرين من ذلك النمط التقليدي من التفسير، فلا يلتزمون بتفسير حزب واحد، ولا بالختمة في عام أو عامين. يقومون بتفسير قدر قليل من الآيات مع بسط في الشرح والتوضيح و خاصة في الأمور الاجتماعية، وإن كانوا في بعض القضايا العقدية و الفقهية لا يخرجون عن المنهج التقليدي في التوحيد الأشعري والفقه المالكي. ولكن بعضهم يمتعض من أفكار أهل الطرق وما يقومون به من التوسل، و ضرب الدفوف، وهيئات الأذكار غير المعروفة في الدين، فينكر على أصحابها ابتداعهم لها. والشيخ لَوَنْ قال-الراوي نموذجي حي لهذا النوع من المفسرين.

ويُعدّ من جملة حركة المتحررين ما قام به بعض السياسيين من تفسير القرآن، و إن كانت أغراضهم تمت إلى السياسة أكثر. و"مَالَمْ أمين-كَنو" ممن اجترأ في إلقاء هذا النوع من التفسير. وذَكر أنه متحرر عن النمط التقليدي المعروف[21]. ويبدو أنه اعتمد تفسير ضياء التأويل للشيخ عبد الله بن فودي لمناسبته للبيئة الهوسوية من حيث أن كاتبه ملكي المذهب أبا و أما-على حد تعبير مالم أمين كنو في رسالة أرسلها إلى السير أحمد سردونا يمدحه على طبع تفسير ضياء التأويل[22].

والسياسة و توعية المجتمع هي محور تفسير مالم أمين. غير أن هذا الشكل من التفسير لم يُقدر له الاستمرار. لأن أغلب المتصدرين للسياسية اليوم بمعزل عن فهم حقيقة الإسلام بله اكتناه الدراسات الإسلامية و العربية التي تؤهلهم للتعرض للتفسير. و هذا لا يعني أن من اجترأوا على التفسير كانوا أكفياء، بل إنما هو "اجتراء" اعتمادا منهم على ما لديهم من الحفنة القليلة من العلم الشرعي.

3- **أهل السنة:** وانتشرت حلقات التفسير لأهل السنة في القُرى و المُدن النيجيرية منذ أواخر القرن العشرين- العقود الثلاثة الأخيرة بالتحديد- بجهود مبذولة من قِبَل "جماعة إزالة البدعة و إقامة السنة" برئاسة الشيخ أبي بكر محمود جومي. و هذه الجماعة تبعث بعثات تضم العلماء المفسرين و المقرئين المجودين إلى الأماكن المختلفة في المدن للتفسير في شهر رمضان. واستقل كذلك بعض العلماء بإلقاء الدرس التفسيري في المساجد و الحلقات على مدار السَّنة. وقد حصل لهذا النمط طرح من طراز خاص من ثلاث حيثيات. أولاهما: فقد كان تركيزهم يختلف عن النمط التقليدي، لأن العقيدة على منهج السلف الصالح، و الفقه على منهج فقهاء المحدثين كانا هما العمدة في الشرح و التعليم. ثانيهما: استُبدلت الكتب المدرّسة من "تفسير الجلالين"، و"حاشية الصاوي" إلى "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير، و"رد الأذهان" للشيخ جومي، و غير ذلك مما يراه كل عالم صالح للاعتماد عليه أثناء شروحه. ثالثتها: قلّ الاعتناء بنشر القصص و الأخبار المكذوبة و استكمال القصص القرآنية بها. وهذا إلى جانب أن الناس يشرح لهم آيات القرآن الحكيم شرحا يستضيؤون به في حياتهم و يبنون عليه واقعهم.

4- **القرآنيون:** في بدايات القرن الخامس عشر الهجري نشأت في بلابد الهوسا جماعة ترى الاكتفاء بالقرآن الكريم في كل شئ. واغتر بهذه الجماعة بعض من طلبة القرآن في المقارئ، فهجروا العلوم العربية و الإسلامية كلها، لأنها مصدر ضلال-حسب ما يقولون-. وعلى الرغم من ضيق عطنهم بالعلوم التأهيلية و تبرّمهم بكل من يتعاطاها، قام بعضهم بتفسير القرآن حسب أهوائهم و تخميناتهم، فتُؤولت الآيات و فُسرت على نحوٍ مُضحك لا ينبئ عن علم، ولا أسُس معرفية! لأنهم فقراء في اللغة العربية، و صُفرٌ في الأحاديث النبوية التي هي سدى و لُحمة في فهم كلام الله تعالى قبل ترجمته للناس! و يرفضون الأخذ من علماء الإسلام جميعا، بل يرون أن المذاهب الأربعة المتبعة هي على غرار الأناجيل الأربعة للنصارى.

وزعيم هذه الجماعة هو طَنْ غُنْغُ. كان داعيا من جماعة إزالة البدعة، يركن كثيرا إلى الجدل و إثارة الخصومات في شؤون تافهة، و مسائل قليلة الجدوى. ثم تحوّل إلى رأي القرآنيين و صار شيخا لهم. و لهم شيوخ سواه؛ كلٌ يقرر ما يراه في دائرة إنكار السنة و تهجين الصحابة الذين رووها و رفض الفقه و كل ما يصلح لاتجاههم.

5-**الشيعة:** و ذرت الشيعة الإمامية برأسها في بلاد الهوسا بعد الثورة الإيرانية الشيعية. و قد تقمصت قميص منظمة الطلاب المسلمين، ثم ظهرت أهدافها جلية على مرأى و مسمع في بداية التسعينات، ثم تحررت منظمة الطلاب من التشيع و تبرأت منه و أهله. و لم تُقدر على إجراء تفسير القرآن أولَ الأمر، ثم في العقد الأول من الألفية الثانية تحرك بعض رجالاتها للتفسير في بعض حلقاتهم، و تفاقم الأمر إلى

تجرأوا على شراء أوقات مخصوصة للبثّ غير المباشر لتلك الدروس التفسيرية. و الطابع الظاهر على التفسير هو محاولة إنكار ما يستهجن من عقائد الشيعة الإمامية المعروفة من سب الصحابة، و الغلو في تقديس أئمتهم، ومحاولة تبرير بعض المسائل التي انفردت بها الشيعة مثل نكاح المتعة وإتيان النساء في محاشهن، ثم الدعوة إلى التشيع تحت ستار حبّ أهل البيت ومناصرتهم. فالعقيدة و الفقه والسلوك وسائر الشروحات أثناء التفسير كلها مبينة على مؤلفات التفسير للشيعة، و على فتاوى علماءها المتقدمين والمتأخرين. على أن كبير زعماءهم في نيجيريا لا يحسن اللغة العربية، و لا النطق بألفاظ القرآن الكريم، كما هو واضح لمن استمع إليه في دروسه، الأمر الذي يدل على عدم التشبُّع بالعلم الشرعي، و رغم ذلك يصر على إجراء حلقات التفسير.

وبعد، فإن ما تقدم تصوير وجيز للطوائف التي تقوم بالتفسير في بلاد الهوسا، يرتاد الناس الحلقات والمعاهد والمساجد للاستماع إلى التفسير. واليوم بعد ذهاب الناس إلى تلك الأماكن على اختيار منهم، فإن وسائل الإعلام المرئية والمسموعة تساهم في نشر دورس التفسير لكل الطوائف تقريبا، ما عدا القرآنيين. و المشكلة أن هذه الوسائل قد تساهم من ناحية أخرى على توسيع دائرة الفوضية، فلا تقوم بدور التنقية والانتقاء لكثير من هذه الدروس التفسيرية، فكل من سدّد المبالغ يُذاع له، وخاصة في شهر رمضان، فيُلقى إلى مسامع الناس ما قد يضرهم و لا ينفعهم! فالمطلوب من وسائل الإعلام أن تجعل نصب عينيها الحفاظ على العقيدة الصحيحة، وتنمية السلوك القويم، و ما يرسخ العادات و الأخلاق و القيم الصالحة المورثة، و ترديد كل ما من شأنه أن يصلح الإفراد و المجتمع ويدفعهم نحو العلم النافع و العمل الصالح!

## المبحث الثالث

## شخصية المُفسر المعاصر

ليس من مهمتي في هذه الأُكْتوبة الوجيزة أن أعرّف -لغة واصطلاحا- بلفظ "القرآن" أو بـ"التفسير"، فمن يجهل هاتين الكلمتين؟ و لم أقصد سرد الشروط اللازم توفرها في المفسر. فهي في الحقيقة كثيرة جدا، وكأنها أُعدت لرجال كاملي العدة لكتابة المجلدات المطولات في التفسير. ولكن لنتناول من هذه الشروط نقاطا، ربما قد تخفى، أو قلّ الحديث عنها. هي نقاط تلامس لبّ المفسر الذي يريد معرفة القرآن في خاصة نفسه قبل تعريفه للناس، فمن لا يعرف القرآن معرفة تناسب مستواه العلمي فلا يفهمه، بَلْهَ أن يُفهم غيره إياه، و بحق قالوا: إن فاقد الشئ لا يعطيه!

والمفسر كشخصية عالمة متصدية لبيان مفهوم القرآن، و إيصال معانيه إلى الجمهور، يحتاج أن يستعد لهذه العملية الشاقة التي يهاب منها حتى الصحابة الكرام و التابعين لهم بإحسان. نذكر من أهمها:

1 -**الاستعداد الروحي**: أعني بهذا الإخلاص في تولي إلقاء الدرس القرآني وترجمة معانيه. فالقرآن قول ثقيل لا يستطيعه إلا الأوعية المفعَمة بالإيمان، فليس للقلب الخرب منه نصيب. وقد دلّت أكثر من آية على أن كُمون الرين في القلب يسد طرق فهم القرآن بتة. و هذا واضح في عرض القرآن لحالة المنافقين الحاضرين لمجالس النبيصلى الله عليه وسلم. فقد كانوا يدخلون عنده ويخرجون صفر اليدين، لا يفهمون ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن و السنة، وإن استمعوا مصغين جيدا إلى منطوقه. و في ذلك يقول القرآن:"ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم"[23].

هذه لفتة بالغة الأهمية، قررها جيدا شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله:"وهؤلاء المنافقون سمعوا صوت الرسول صلى الله عليه وسلم و لم يفهموا، وقالوا : ماذا قال آنفا ؟- أي الساعة! وهذا كلام من لم يفقه قوله. فقال تعالى:"أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم". فمن جعل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان غير عالمين بمعاني القرآن جعلهم بمنزلة الكفار والمنافقين فيما ذمهم الله تعالى عليه".- و نظير هذه الآية قوله تعالى:"ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم، ولو أسمعهم"[24]- أي: لأفهمهم ما سمعوه، ثم قال: ولو أفهمهم مع هذه الحال التي هم عليها،- "لتولوا وهم معرضون"-، فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا، ولو فهموا لم يعملوا، فنفى عنهم صحة القوة العلمية، وصحة القوة العملية"[25].-يعني أنه هذه الآية شاهدة على صدق الصحابة، إذ أنهم رووا الألوف المؤلفة من الأحاديث في شرح الآيات. فليس هناك- كما هو واضح- منافق معروف النفاق يروي شيئا عن النبيصلى الله عليه وسلم.

وعليه، فالمفسر الذي لم تخلص نيته لله تعالى، حيث علقت بها الدنيا، أو شابَها العجب وحب السمعة، قلّما يجد حلاوة القرآن، ولا شك إذًا إذا ندّ عليه محتوى هذا الكتاب العزيز، وتحيّر في استلهام مدلولاته.

2- **الحس اللغوي**: فالقرآن عربي، و من هنا لا مندوحة للمفسر من البصر بهذه اللغة على مستوى يتكوّن له الحس اللغوي، يقدر به على قراءة النص القرآني قراءة علمية سديدة لحد يدرك به رسالات كتاب الله، وهضم شروحات المفسرين. قال الإمام مالك:"لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا"[26].- فلا يُفترض على المفسر المعاصر بلوغ القمة العلياء في العربية و مع

ذلك لا أرمي به السقوط إلى الحضيض، حيث تكون أقصى مصادره "كتاب الأطفال"، أو يتسح بشيء من كلمات متناثرة عرفها في كتاب القراءة العربية المصوّرة"؟ نعم، قد رأيت قطيعا من المتصدين للتفسير لا تجاوز معلوماتهم في العربية "كتاب القراءة الرشيدة"، وبضعة صفحات من "كتاب النحو الواضح"- بقدر الأول صدد و قصر منهم قرأوا بداية كتاب الآجرومية، ولم يكملوه. و كم من المفسرين من كانت ترجمات معاني القرآن إلى لغة أقوامهم هي سنادهم، و يَقُون حيارى، إذا لم يقدروا على مراجعتها عند ذلك ليوم أو بعد لم يتمكنوا من اختلاس النظر فيها إبان إلقاء الدرس! فأي غش هذا؟! فعسانا لا نتركوا تفسير كتاب الله ويشتغلون بتدريس بعض الكتب الفقهية الصغيرة المشهورة مثلا، فيشرحونه من السعة و الزلل، ويُهوّلون الخطب!؟

ج- **التشرب من السنة النبوية:** فمن تشرب بالسنة، فلا بد أن يرى عليه أثر الشبع! المطلوب من المفسر أن يكون على قدر من المعرفة الكلية بالسنة النبوية في المجالات كلها على وجه العموم، بحيث قد تشرّب منها ما يستجلي به معاني الكثير من الآيات مما سنّه الرسول صلى الله عليه وسلم أو حدّث به. وليس هذا فرضا على المفسر أن يحيط علما بالسنة. فمن يقدر على ذلك؟! ولكن يقبح أن يكون المفسر منفصلا في أحاديث الرسول، وغائبا في سنته صلى الله عليه وسلم ، و إنما ملأ ذاكرته بأقوال أهل الفرق، واختلاف وجهات نظر أهل المذاهب، وليس لديه ممكنة من العلم بالسنن الفعلية والقولية والتقريرية، غير ما تكيف لديه الرؤية الواضحة لنصوص القرآن. فقد قال الله تعالى في حق الرسول صلى الله عليه وسلم: "هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم و يعلمهم الكتاب والحكمة"[27]. و قال: "و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم"[28].

د- **استيعاب تاريخ الإسلام:** يحتاج المفسر في كثير من الأحايين إلى شرح موقف الإسلام من عدد أمور، وفي أثناء ذلك يجد ضرورة التفريق بين ثلاثة أشياء، و هي: الجاهلية، وما يمارسه المسلمون من أعمال، وبين شريعة الإسلام المنزّل، ولا يسعفه على التخلص من أمثال هذه المواقف إلا المعرفة الوا تاريخ الإسلام، والأطوار التي مرّت بالمسلمين. إذ تعاليم الإسلام شيء، وأعمال بعض المسلمين- ر و ربما- شيء آخر، يشهد على ذلك التاريخ الموثوق. فالمفسر اللبق يحاول ألا تفوته هذه المعلوم وقد قال عمر بن الخطاب قولة صائبة: "إنما تُنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلا لم يعرف الجاهلية". - فكيف يفسر القرآن، و يُحلي معانيه إلى الناس من لم يستوعب قدرا من الإسلام؟! ولا نعني بذلك معرفة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فقط، كلا! صحيح أنها من التاريخ، و لكن المفسر يتقدم إلى العصر الخلافة الراشدة، وما أعقبها من الدول الأموية و ا فيرجع بالحروب الصليبية، إلى الدولة العثمانية، إلى تأسس الدولة في صكتو- مثلا-، و تأثر المستعمرين أراضي المسلمين. ولا ندعو إلى التعمق، و لا نحرض التخصص فيها، ولكن تركه

شبه السطحية بهذه التواريخ. إذ بها يستطيع المفسر تبيين صيانة القرآن -لفظا ومعنى- من أي إصابة أو تحريف، ويثبت- من وجه آخر- خلود شريعته، و صلوحيتها لكل زمان و مكان!

**5-الإلمام بالعلوم الشرعية:** يلزم المفسر أن يلمّ بالعلوم الشرعية، و بالأخص علم الحديث، وعلم أصول الفقه، وعلم الفقه. لا نزعم أنه لا بد أن يكون شخصية متعددة الجوانب بمستوى رفيع، و لكن يحاول أن يكون مُلمّا بهذه العلوم الوثيقة الصلة. يقول كبار أئمة المذهب المالكي: أشهب ومطرف وابن الماجشون و أصبغ- رحمة الله عليهم- "لا يصلح أن يكون صاحبَ حديث لا فقه له، أو فقيها لا حديث عنده، و لا يفتي إلا من كانت هذه صفته إلا أن يُخبر بشئ سمعه"[29]. وصاغ الإمام ابنُ الجوزي-رحمه الله تعالى- هذه العبارة صياغة بليغة بلفظ:"ينبغي لكل ذي علم أن يُلمّ بباقي العلوم، فيطالع منها طرفا، إذ لكل علم بعلم تَعلُّق. وأقبح بمحدِّث يُسأل عن حادثة (فقهية) لا يدري، وقد شغله عنها جمع طرق الأحاديث. وقبيح بالفقيه أن يُقال له ما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا، فلا يدري صحةَ الحديث، ولا معناه. نسأل الله عز وجل همة عالية لا ترضى بالنقائص، بلطفه ومنّه"[30].

والذي كرس جهده في فهم أصول التفسير يخرج و يداه ملآ بضروب من هذه العلوم، من مباحث اللغة، وعلوم الحديث، و أصول الفقه. لأن جلّ المباحث الأولية لهذه العلوم متداخلة، تجمعها قواسم مشتركة لحدٍّ ما!

وقد يسر الله تعالى للناس في هذا العصر، حيث قد قدم العلماء أعمالا جُلى في هذه العلوم، فلم يبق للمفسر إلا أن يجد هذه الأعمال ليستفيد منها في صحة الأحاديث و ضعفها. فلا ينبغي للمفسر أن يجمد على معارفه ومعلوماته القديمة، بحيث لا يجهل الكلام البسيط في الحديث الصحيح و لا الحسن بلْه الضعيف بأنواعه! أو يتبرم بآراء سائر الفقهاء! و أقول صادقا إن مَنْ هذه عقليته لبعيدُ المسافات عن فهم القرآن!

**6-اكتناه مناهج المفسرين:** كتب العلماء القدماء و المُحْدَثين ألوانا من التفسير، و لكل مفسر منهج يتبعه لعرض التفسير، وبيان كلام الله تعالى. فلا بد للذي يقوم بترجمة كلام الله تعالى وإيصاله إلى الجماهير أن يعرف طرائق المفسرين ومناهجهم، حتى يتمكن من الاستفادة التامة من أفكارهم و علومهم. وهذا يقتضي أن يطلع على المقدمات التي قدم بها المفسرون تفاسيرهم، أو يستخرج المناهج من ثنايا التفاسير. وتفيد بعض الكتب المخصوصة لشرح مناهج المفسرين من أقدمها "التفسير والمفسرون" للدكتور محمد حسين الذهبي، وكذلك "مفهوم التفسير" للدكتور مساعد الطيار، و"مناهج

المفسرين" للشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، "و التفسير و المفسرون في ثوبه الجديد" للأستاذ الدكتور عبد الغفور محمود مصطفى جعفر، و غيرها كثيرة.

7-**الاقتباس من الثقافة المعاصرة المفيدة**: ليس جيدا أن ينغلق المفسر على نفسه، و لا ينفتح ليلمّ بالثقافة المفيدة السائدة في عصره، وقد جدّت في هذا العصر قضايا علمية كثيرة، كما تفيض كل يوم اختراعات تكنولوجية، فلا يستطيع حلها إلا من له قدر من المعرفة بثقافة العصر. وعدم اطّلاع المفسر على قسط مفيد من هذه الثقافات، وعدم وعيه بمشاكل العصر وتحدياته، يوقعه في التذبذب، ويحُوله دون تفهيم القرآن للحاضرين، إذ يستمع اليوم إلى التفسير- من وسائل الإعلام المرئية والمسموعة- شرائح مختلفة من الناس، ومن بينهم طبعا من قد تثقفوا بثقافة الغرب، يظمأون إلى تجديد المعلومات في طرح متزن يتناسب مع عقولهم. و قد قال علي بن أبي طالب ﷺ:"حدثوا الناس بما يعرفون! أتحبون أن يكذّب اللهُ ورسولُه ﷺ!"[31].

8- **معرفة الترجمة السليمة و آدابها**: القرآن هو كلام الله حقيقة، و هو الذي يقوم المفسر بترجمته، فلابد -إذًا- من مضاعفة التفكير فيما يقدم عليه. فيحتاج حقيقة إلى معرفة الألفاظ و المعاني و ما تحيل إليه في اللغة التي ينقل إليها معاني القرآن، حتى لا يصيب مقاصده بتشويه، أو يستعمل المفردات غير لائقة. والترجمة أنواع و لها آداب أيضا، فالإلمام بكل ضروبها من حقيقة ومجاز، وكناية، و مجمل و مفسّر، و ما يتبع ذلك من معاني غمز، و همز، و لمز، وسائر ألوان تصرفات اللغة ضروي بقدر ما يُستعان به في تبليغ رسالات الله. فمن عرف في نفسه العجز عن ذلك فليتق الله ربه وليقتصر عن الاقتحام في المهالك!

9- **الدأب على الدعاء للفهم السليم**: أخبرني بعض مشائخي أن العادة جرت في بلاد الهوسا أن العالِم الذي يقدم على التفسير في شهر رمضان يهيب الموقف! لذلك كانوا لا يبدؤون إلا بعد التهيئة الكاملة؛ بشُرب كؤوس غير قليلة من الدعوات، والاغتسال بكثير من الماء الممزوج بالطلاسم حتى لا يُصاب المفسِّر! فالهيبة- كما فهمتُ- ليست من كلام الله تعالى، ولكن خوفا لكيد زملائه، وعياذا بالله من عيون المستمعين إليه! ولا تخفى بدعية هذا اللون من الدعاء! وإنما عنينا هنا أن المفسر لا بد أن يكثر الضراعة إلى الله تعالى، ليُسدّد خطاه، ويُفهمه القرآن!

ولعل المقصود يظهر إذا أخذنا صورة واضحة المعالم مما يفعله شيخ الإسلام ابن تيمية. فقد كان له اعتناء بالغ بالدعاء لفهم القرآن:"يقول: ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول يا معلم آدم وإبراهيم علّمني. وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأضع وجهي في التراب، وأسأل الله تعالى، وأقول يا معلم إبراهيم فهمني. ويذكر قصة معاذ بن جبل، وقوله

لمالك بن يخامر لما بكى عند موته، وقال: إني لا أبكي على دنيا كنت أصيبها منك، ولكن أبكي على العلم والإيمان الذين كنت أتعلمهما منك، فقال إن العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما وجدهما، فاطلب العلم عند أربعة: عند عويمر أبي الدرداء، وعند عبد الله بن مسعود، وأبي موسى الأشعري، وذكر الرابع، فإن عجز عنه هؤلاء فسائر أهل الأرض عنه أعجز، فعليك بمعلم إبراهيم". و يقول ابن تيمية أيضا: "إنه ليقف خاطري في المسألة أو الشيء أو الحالة التي تشكل عليّ فاستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل حتى ينشرح الصدر، وينجلي إشكال ما أشكل"[32].

## المبحث الرابع
## توجيهات ضابطة لمعرفة القرآن

إذا تكوّنت شخصية المفسر بحسب ما حباه الله، فإنه محتاج أيضا إلى التأهب و التحضير لما يُلقي من الدروس، وبالأخص في مجالس التفسير الرمضانية، فلا يحسبن أن قدمه قد رسخت في العلوم، فيُهمل التحضير. و نجمل فيما يلي أهم النقاط التي قد تساعده أثناء الإلقاء، و في إدارة مجلس الدرس التفسيري على وجه العموم:

1 -**مراجعة القرآن**: جدير بالمفسر الذي يبتغي إيصال المعلومات الحقيقية عن القرآن أن يقوم -قبل حلول الشهر- بقراءة هذا التنزيل قراءة واعية كاملة، فبجانب الفوائد الروحية الجمة التي يحصل عليها، فإن حلاوة القراءة الفاهمة يمتد أمدها طويلا، فلا تفارق المفسر طول ذلك الشهر، فيحس بمساعدتها على الرؤية الواضحة للإحاطة بجوانب الآيات المتشابهات المتناثرة في زوايا القرآن. ولا أشك أن هذا يكون هو البؤرة الأساسية لفهم كتاب الله تعالى، و تفهيمه للغير.

وقد ألحّ القرآن على المسلمين عموما في غير ما آية أن يدبروه و يتفقوا فيه. منها قوله تعالى:"كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُإِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَأُوْلُو الأَلْبَابِ". و قوله تعالى:"أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها؟". فالذي يعقد الجلسات التفسيرية من أحرى الناس بالتبصر في هذا الكتاب، والمحاولة الجادة لاستكشاف معانيه. ويفيد جدا في هذه القراءة الواعية إذا صاحب المفسر تفسيرا متوسطا، يسدد فهمه، و يعطيه مدلولات الكلمات. ومن خلال هذه الجولة الواعية يتحقق المفسر من بعض معطيات "الظواهر القرآنية" المبثوثة فيه.

وأعني بالظواهر القرآنية: المعاني التي يكررها القرآن و صرف الله الآيات كثيرا فيها. وأمثلتها كثيرة، منها: ظاهرة "الدعاء في القرآن"، و"الصبر في القرآن"، و"البعث في القرآن"، و"الحور العين في القرآن"، و"المجتمع في القرآن"، و"التقوى في القرآن"، و"صفات المنافقين في القرآن"، وغير ذلك مما

يستطيع المفسر أن يجمع أطراف الآيات، و ينظر فيها من خلال التفسير الموضوعي ليستخرج منها ما انتهى إليه اجتهاده من بدائع العلوم و مُلح الحِكَم.

أجل، ذكرتُ استصحاب التفسير المتوسط، لأني أحسب كأن بعض التفاسير لم تُصنع لتجلية مقاصد القرآن، وإن كانت تحمل عنوان "التفسير". فينبغي أن يتوخي المفسر التفاسير المتوسطة التي تفي بالغرض، و لا توقعه في الغموض، كـ"تفسير الجلالين" و أمثاله مما فيه بعض المشاكل[33].

تعرض الدكتور موسى شاهين لاشين بذكر منهج تفسير الجلالين، و ذكر وجازته وقصوره عن إيفاء بعض المعاني. ثم أردف قائلا:"قد بلغ هذا التفسير من الإيجاز حدا دفع بعض علماء اليمن إلى أن يعد حروفه، فوجدها مساوية لحروف القرآن إلى سورة المزمل. ومن سورة المدثر: التفسير زائد على القرآن. ومن هنا حكم بجواز حمله بغير وضوء"[34].

والتلاوة المغذية للروح ينبغي أن تكون بالتدبر وتفتيح العقل والقلب للقرآن. و نأخذ عبرة من قصة الدكتور محمد إقبال- الشاعر الهندي الملهم- مع والده. قال:"قد كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم، وكان أبي يراني، فيسألني ماذا أصنع ؟ فأجيبه أقرأ القرآن! وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله، فأجيبه جوابي! وذات يوم قلت له: ما بالك يا أبي تسألني نفس السؤال، وأجيبك جوابا واحدا، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد ؟ فقال: إنما أردت أن أقول لك يا ولدي: اقرأ القرآن كأنما نُزّل عليك ! قال محمد إقبال: ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن، وأقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبستُ، و من دُرره ما نظمتُ"[35].

وبقي أن نضرب مثالا في القصص القرآني. فقد وزع القرآن قصص الآنبياء و الأمم في سور القرآن لعدة حِكمَ شرحه العلماء. والمطلوب للمفسر أن يحيط بمفردات القصة التي يشرحها من القرآن نفسه، ثم من الأحاديث الثابتة إن كانت موجودة في الباب، و لا يعرج على روايات مدخولة. وهذا ما حدث في قصة لنبي الله موسى- عليه السلام. فقد عرض لفرعون- من جملة دعوته له- أن يرفق ببني إسرائيل و يطلق سراحهم معه، فتكبر فرعون وعصى، وتنادى في أشياعه بأن يقتلوا الذكور ويبقوا الإناث من بني إسرائيل.

والظاهر الواضح في القرآن حدوث هذا العذاب المفاجئ بعد مجيئ موسى بالرسالة. قال تعالى:"ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين. إلى فرعون وهامن وقارون، فقالوا ساحر كذاب. فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا واستحيوا نساءهم، وما كيد الكافرين إلا في ضلال"[36]. - والعجيب أن ينساق المفسرون لما لا دليل عليه، من أن فرعون تُكهّن أو تُكُهّن له بأن مولودا ذكرا يخرج من أصلاب بني إسرائيل ويحيق ملكه، فاشتاط غضبا وأمر بذبح الأبناء واستحياء

البنات من أولادهم ليقطع منفذ خروجه، و يستأصله! فهذا ما اخترعته بعض النواصي الخاطئة وتلقفه المفسرون لقمة سائغة!! فمن أين لهم هذا!؟

إن الجولة الواعية في سائر الآيات تنطق بجلاء بأن الله بعد إهلاك فرعون يمتن على بني إسرائيل بإنجاءهم من شر فرعون وآله، و يذكر من جملة امتنانه تعالى عليهم قوله:"وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم"[37].- وقال أيضا في سورة الأعراف:"وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يقتلون أبناءكم و يسحيون نساءكم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم"[38].- وأصرح من كل ذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم:"وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم"[39].

2-**تحديد هدف كل درس:** بَديهٌ أن القرآن من ميزاته الشمول، و قد تعرض لعديد من القضايا. وفي ذلك ألقى إليّ بعض الناس سؤالا، يريد دليلا بسيطا عن كون القرآن شاملا لبيان كل شئ! فقلت له: انظر إلى فهرسة الكتاب، وقائمة محتوياته. فإن أسماء سور القرآن فقط كافية للدلالة الواضحة على هذه الشمولية. في تقديري ليس هناك جنس من المخلوقات الظاهرة وشريحة بارزة في المجتمع إلا و قد حملت إحدى السور القرآنية عنوانا يدل عليه. فمن شاء فليلق نظرة عجلى إلى هذه السور: "الرحمن"، و"الناس"، و"الجن"، و"الأنبياء"، و"إبراهيم"، و"محمد"، و"المؤمنون"، و"الكافرون"، و"المنافقون"، و المطففين"، و"النساء"، و"آل عمران"، و"مريم"، و"الشعراء"، و"الفيل"، و"البقرة"، و"النمل"، و"العنكبوت"، و"النحل". وانظر سورا أخرى بهذه العناوين:"القدر"، و"المُلك"، و"الحج"، و"الجمعة"، و"التحريم"، "والسجدة". و كذلك: "الرعد"، "والزلزلة"، و"الكهف"، و"الروم"، و"الأحزاب"، و"سبأ"- إلخ.- جئنا بهذا القدر للتمثيل فقط على تنوّع المحتوى القرآني، وتغطيته لقضايا العقيدة، والنبوة، والمعاد. وتعرضه أيضا لقضايا الإلهيات والطبيعة، والإنسان، والمجتمع، والتاريخ[40].

والهدف الأساس من هذا الكتاب المجيد هو هداية الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وليقوموا بالقسط، شهداء لله. و المفسر يعرف المقاطع التي يلقيها اليوم و الغد وبعد غد، فالمطلوب منه أن يتأمل قدر درسه اليومي، فيحدد هدف ذلك المقطع، ويستنبط منه دروسا موافقة لظروفه، ناجعة لعلل مجتمعه، ثم يفكر في الكيفية التي يحلل بها العناصر التي ارتكز عليها تحته، و يفكر كذلك في الأسلوب الذي يستسيغه الحضور.

وهذا التفكر والتأملات لابد منها كل يوم، وإلا فقد يقتل المفسر أوقات و أوقات عند التفسير دون أن يفهم الحاضرون اتجاهه.

3- **عدم التوغل في شرح المُلَح**: قسّم الإمام الشاطبي مسائل العلم إلى ثلاثة أقسام؛ و هي: صلب العلم، ومُلَح العلم، ومنه ما ليس من صُلْبه ولا مُلَحه. أما القسم الأول فهو الأصل والمعتمد، والذي عليه مَدارُ الطّلَب، وإليه تنتهي مقاصد الراسخين. وهو العلم الذي يستند إلى ثلاثة خواص، إحداها العموم والإطراد، والثانية الثبوت من غير زوال، والثالثة كون العلم حاكما لا محكوما عليه بمعنى كونه مفيدا لعمل يترتب عليه مما يليق به. وهذا العلم يرجع إلى حفظ المقاصد التي بها يكون صلاح الدارين.

والقسم الثاني وهو المعدود في ملح العلم لا في صلبه. وهو الذي تخلف عنه خاصة من تلك الخواص أو أكثر من خاصة واحدة. و ذكر الشاطبي من أمثلة هذا القسم:"المسائل التي يُختلف فيها، فلا ينبني على الاختلاف فيها فرع عملي، إنما تعد من الملح، كالمسائل المنبّه عليها في أصول الفقه. ويقع كثير منها في سائر العلوم، وفي العربية منها كثير كمسألة اشتقاق الفعل من المصدر، ومسألة اللهم، ومسألة أشياء، ومسألة الأصل في لفظ الاسم، وإن انبنى البحث فيها على أصول مطردة، ولكنها لا فائدة تجنى ثمرة للاختلاف فيها، فهي خارجة عن صلب العلم".

والقسم الثالث وهو ما ليس من الصلب ولا من الملح، وإنما شأنه أن يكرّ على أصله، أو على غيره بالإبطال، مما صح كونه من العلوم المعتبرة، والقواعد المرجوع إليها في الأعمال والاعتقادات، أو كان منهضا إلى إبطال الحق وإحقاق الباطل على الجملة. فهذا ليس بعلم، لأنه يرجع على أصله بالإبطال، فهو غير ثابت، ولا حاكم، ولا مطرد أيضا. ولا هو من ملحه لأن الملح هي التي تستحسنها العقول، وتستملحها النفوس، إذ ليس يصحبها منفّر، ولا هي مما تعادي العلوم، لأنها ذات أصل مبني عليه في الجملة بخلاف هذا القسم فإنه ليس فيه شيء من ذلك". "ومثال هذا القسم ما انتحله الباطنية في كتاب الله من إخراجه عن ظاهره، وأن المقصود وراء هذا الظاهر، ولا سبيل إلى نيله بعقل ولا نظر، وإنما يُنال من الإمام المعصوم تقليدا لذلك الإمام، واستنادهم فى جملة من دعاويهم إلى علم الحروف وعلم النجوم. ولقد اتسع الخرق فى الأزمنة المتأخرة على الراقع فكثرت الدعاوى على الشريعة"[41].

العجب من بعض المفسرين، حيث يطرحون أمثال هذه المسائل التوافه والعويصات من الملح ليمتحن الحضور، يا تُرى فما جدواها لديهم؟! فليحذر المفسر كيلا يتشاغل بحلها، فإن تطرّقها أمام مثل ذلك الحشد الذي يغشاه أنصاف المتعلمين هدر للوقت، وقد ينتهي فلا يُفهِم- على أقل التقدير- إلا نفسه! ثم يصاب بالعجب، ظنا أنه أتى بما لا يقدر عليه أحد!

4-**استذكار أصول التفسير**: المفسر كسائر المسلمين يحتاج:"إلى شيئين: أحدهما معرفة ما أراد الله و رسوله بألفاظ الكتاب والسنة، بأن يعرفو لغة القرآن التي بها نزل وما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر علماء المسلمين في معاني تلك الألفاظ". و ثانيهما:" معرفة ما قال الناس في هذا الباب لينظر المعاني الموافقة للرسولصلى الله عليه وسلم والمعاني المخالفة لها"[42]. و لا مندوحة للمفسر من توسيع مداركه في علم أصول التفسير، ليحيط بالقدر الكافي من القواعد و الأصول والكليات التي انبنى عليها فهم القرآن، ومعرفة مراد الله بحسب طاقته.

كتب العلماء في هذه الأصول و أشبعوا، و إنما نستحسن فيما يلي إيراد بعض المرتكزات التي يجعلها المفسر نصب عينيه في تجواله التفسيري:

ا-**دلالة السياق**: كل شئ في القرآن مقصود، يتساوى في ذلك ترصيف الآيات وارتباط المقاطع، وترتيب الكلمات وتلاحم حروفه. والسياق القرآني واجب الاهتمام به لفهم الإطار العام من الكلام المسوق، وتحديد وحدة الصورة دون تمزيقها. فوجب أن يكون المفسر حاد البصيرة، بحيث ينظر إلى ترابط الآيات ليتمكن من إعطاء المعنى الشامل من الآية. و قد كان السلف يرون أن تدبر نظم الآيات و النظر في سياقها سِباقا ولِحاقا من الأساسيات في اكتناه كلام الله حتى لا يقوّل عليه تعالى ما لم يقله. قال ابن مسعود:"إذا سأل أحدكم صاحبه كيف يقرأ آية كذا وكذا، فليسله عما قبلها"[43]. وقال مسلم بن يسار:"إذا حدثتَ عن الله حديثا، فَقِفْ حتى تنظر ما قبله، و ما بعده"[44].

وطبّق هذه القاعدة عمليا أبو سعيد الخدري. فقد:"حدَّث أن قوماً يدخلون النار، ثم يخرجون منها! فقيل له: أوليس الله تعالى يقول:"يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم" (المائدة-37) - ؟ فقال لهم أبو سعيد : اقرؤوا ما فوقها:"إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم (المائدة-36)"[45].

ولا يخفى التناغم في سياق السور و العلاقة بين أواخر الآيات في سورة ما و بين فاتحة سورة تالية لها. و قد أولاه المتقدمون عناية، و أسموه بـــ"المناسبات". قال ابن العربي المالكي:"ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني - علم عظيم"[46]. والإمام أبو بكر النيسابوري كان غزير العلم في هذه الجزئية، حتى عُزي إليه – خطأ- التنبّهُ الأول لهذه الفن. و الصواب أنه مهتم جدا بإظهاره. يقول إذا قُرئت عليه آيةٌ:"لم جُعِلَتْ هذه الآية إلى جنب هذه ؟ وما الحكمة في جَعْلِ هذه السورة إلى جنب هذه ؟". وكان يُزري على علماء بغداد، لعدم علمهم بتلك المعاني"[47].

وخذ على سبيل المثال قول الله تعالى:"واتقوا الله، ويعلمكم الله"، فإن بعض العلماء حمله- حسب رأيهم-برهانا على ما أسموه بـ"العلم اللدني"، الذي يتأتى بعد الالتزام الشديد للتقوى بدون تعلم ولا مدارسة. وهذا بلا شك خطأ كبير. فإن الآية وردت في سياق أحكام الدَّين حيث قال الله تعالى:"يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ"[48].

سُقتُ هذه الآية رغم طولها لتنطق تلقائيا على أن المقصود منها هو تعليم المسلمين أحكام المداينة، وعلى حد تعبير الإمام ابن جرير الطبري:"واتقوا الله"- خافوا الله أيها المتداينون في الكتاب والشهود أن تضاروهم، وفي غير ذلك من حدود الله أن تضيعوه. ويعني-(ما زال الكلام لابن جرير)- "ويعلمكم الله"- يبين لكم الواجب لكم وعليكم، فاعملوا به، والله بكل شئ عليم"[49]. فليس هناك -في الحقيقة- رباط معنوي في حصول العلم نتيجة التقوى، كما يفسر كثير من الناس-علماؤهم و جهالهم- الآية عليه. إذ لو كان كذلك لكانت الجملة للشرط وجوابه، فيكون سياقها حسب التالي: اتقو الله و يعلمْكُم الله، بإسكان الميم جوابا للشرط. ويقتضي هذا السياق أيضا إبدال الفاء مكان الواو في "و يعلمكم"- فيصير "فيعلمكم"- ليظهر جواب الشرط في سياقه الحقيقي.

فبان بهذا الشرح الوجيز أن الآية ليست في شئ مما أكثر الناس الاستدلال بها فيه، من أن التقوى تكفل العلم، وتدرّ بالمعرفة على أصحابها، و تفيض عليهم بالعلوم و المكاشفات. و لا ننكر أن الله يساعد المتقي، ويعطيه القوة العملية و العلمية، و لكن هذه الآية ليست دليلا على ذلك. وفي مساندة ذلك الرأي الفاسد ذكروا بعض الأحاديث، وكلها مُختَلقة، منها:"من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم، و هدى بغير هداية، فليزهد في الدنيا"-. نقل الشيخ العجلوني عن القاري يقول:" لم يوجد له أصل"- ثم عقب العجلوني عجبا:"و معناه صحيح مستفاد من قوله-عليه الصلاة و السلام-"من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم". - يدل تصرف الشيخ العجلوني-رحمه الله تعالى- أن الحديث المستفاد منه ثابت، و هو محل العجب، لأن الحديث نفسه موضوع باتفاق أهل العلم بذلك[50].

ب- **قاعدة عدم المجاز في القصص القرآني:** لم أتنبه لهذه القاعدة المهمة حتى قرأت كتاب "بدع التفاسير" للشيخ عبد الله بن الصديق الغماري، فإذا هو يقررها بجلاء، و ينعى بحق على المفسرين قاطبة، مؤكدا أنه:"بسبب غفلتهم عنها وقع كثير منهم في تفسيرات مخطئة".

والمقصود بالقاعدة أن القرآن إذا تحدث عن الأمم السابقة "التي لا تتكلم العربية، مثل قوم نوح، و إبراهيم، وبني إسرائيل، وحكاية ما حصل بين رسلهم و بينهم من مجادلات، و ما توجه إليه من خطابات تكليفية وغيرها"، لا يأتي القرآن بألفاظ محتملة لمعان، بل كل ما يذكره هو عين المقصود لا مجاز فيه، لأن تلك القصة بالذات ترجمة ناقلة لما يتكلمون به أقوام لم تبق لهم باقية، فلا بد بالضرورة أن تُحمل ألفاظ القرآن عندئذ على ظواهرها اللغوية، و لا تُحمل على مجاز أو استعارة و لا تحتاج إلى تأويل، أو شئ آخر. فالمطلوب أن يحكي المفسر قصتهم بلغة واضحة لا يشوبه غموض[51].

ولنضرب مثالا. قال تعالى:"و إذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة، إني أراك وقومك في ضلال مبين". فلا نقول هنا بقول بعض المؤرخين و النسابين بأن اسم والد إبراهيم "تارح" بدل "آزر" الذي نص عليه القرآن. ويبدو أن الرازي المتكلم هو أول من نصب هذا الرأي في عقول المتكلمين والمقلدين، و لم أر- في حدود اطلاعاتي- للعلماء قبله كلاما حول هذا.

وقد كان شيخ المفسرين والمؤرخين معا الإمام ابن جرير الطبري يصوب القول بأن اسمه آزر حسب نص القرآن، لا تارح[52]. و قد ورد اللفظ "أب" هكذا في الحديث رواه أبو هريرة أن رسول اللهصلى الله عليه وسلم قال:"يلقى إبراهيم أباه يوم القيامة.... "[53].

ومثال آخر نورده في قوله تعالى:"و امرأته قائمة فضحكت، فبشرناها بإسحاق، و من وراء إسحاق يعقوب"[54]. – فقد حلى لبعض المفسرين أن يحملون كلمة "ضحكت" بمعنى "حاضت". وقد سمعت بعض المفسرين يشدد على من يفسر الكلمة بمعنى الضحك و السرور. والحجة لهذا القول أن الضحك من معانيه الحيض في اللغة العربية. ثم هو المروي عن ابن عباس عكرمة ومجاهد.

أما الرواية عن هؤلاء الأعلام، فلا أشك في ضعفها، و عدم الأصل لها[55]. ولا حاجة – كما هو المعلوم بالضرورة من القواعد العلمية- إلى تطرق المجاز ما دام أن الحقيقة تفي بالغرض. لأن الله تعالى يخبرنا عما وقع في لغة غير العربية. فما فائدة المجاز إذاً؟ و لعله لذلك ذهب الأكثرون من المفسرين القدامى إلى أن الضحك في الآية هو بمعناه المعروف. و أما تفسيره بالحيض فقال ابن جزي الغرناطي:"ضعيف"[56].

وما أروع قولة الشيخ عبد الله بن فودي-رحمه الله تعالى-:"إذا نطق القرآن بأمر ممكن، ووافقته الأحاديث، فلا وجه للتأويل، و العدول عن الظاهر"[57].

ج- **التثبت في النقول:** كلمة النقول هنا شاملة لأسباب النزول و الناسخ و المنسوخ و سائر الروايات، بما فيها الإسرائيليات. فقد ردد العلماء منذ عهد الصحابة إلى اليوم أهمية أسباب النزول و الناسخ و المنسوخ في فهم القرآن. ويعرف الكل هذه القصة أن عليا ﷺ قال:"لرجلٍ يقص على الناس: هل تعلم الناسخ من المنسوخ؟ فقال: لا. فقال: هلكتَ، وأهلكت"[58].

وتظاهرت النقول عن العلماء في التشييد بأهمية أسباب النزول حتى قال الإمام الواحدي:"لا يمكن تفسير الآية دُونَ الوقوف عَلَى قصتها، وبيان نزولها"[59]، وقال ابن دقيق العيد:"بيان سبب النزول طريق قوي فِي فهم معاني القرآن"[60]. — و لكنّ ما أودّ الإشارة إليه هنا هو التثبت والتأكد من ثبوت كل نقل أو رواية قبل الاستدلال بها. فقد كثر المغشوش في أخبار التفسير ورواياته، حتى قال أحمد بن حنبل:"ثلاثة كتب ليس لها أصول: المغازي ، والملاحم ، والتفسير"[61].

5- **التمهل قبل إصدار الفتاوى:** كثير من طلبة العلم في هذا العصر تذبّبون قبل أن يتحصرموا ! وهي فتنة كبير. يظن من تشبع بالقراءات المفككة لبعض المسائل المتعلقة بالطهارة و الصلاة أنه بلغ الذروة في الاجتهاد، وأن قامته تتساوى مع رؤوس سائر المجتهدين! فيُجيب عن المسائل المطروحة عليه توّا من غير تحصيل أو ملاحظة بحث سابق عليها. فأستحب للمفسر أن يربأ بنفسه عن التعجل لإصدار الفتاوى، و بالأخص "المعقدة" منها! فلماذا لا يجمع الأوراق اليوم، ويجيب عنها غدا بعد دراسة و بحث ومراجعة أهل العلم- فقد قال الله تعالى:"فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون".

**الخاتمة:**

"أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن"- حسب ما قاله راغب الأصفهاني[62]. فلابد إذًا من يتأهل المفسر تأهُّلا يُمكّنه من معرفة القرآن معرفة جيدا. و أرى كثيرا من المفسرين اليوم بالنسبة لادعاءهم معرفة التفسير يتشابهون بما حدث لرجل في قصة ظريفة. قيل له:"تحفظ القرآن ؟ قال: نعم! قالوا: إيش أوّل الدّخان —(يعنون أول سورة الدخان)؟! قال: الحطب الرّطب!"[63].

من مهام المفسر أن يلصق الناس بالقرآن ويحذرهم من هجرانه بأي وسيلة تكون الهجرة. ذكر الإمام ابن القيم أنواع هجر القرآن، وعدّها خمسة، ولا بأس بإيرادها هنا:

"أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصّل العلم.

والرابع: هجر تدبّره وتفهّمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي في جميع أمراض القلوب وأدوائها. فيطلب شفاء داته من غيره، ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله:"وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا"[64]- وإن كان بعض الهجر أهون من بعض"[65].

وكم يود الباحث أن تكون هناك لجنة خاصة لتحرير المفسرين في بلاد الهوسا تنظر في شؤون التفسير والترجمة، وتتفقد الأهلية والمؤهلات العلمية لمن يقوم بهذا العمل! و يذكر أن السير أحمد بللو قد أراد تكوين مثل هذه اللجنة، فحال دون تأسيسها وفاته. فالحاجة إلى لجنة متماسكة قوية تزداد- في الحقيقة- ترداد كل يوم، و إلا فستتعقد الأمور، أو تفرط أكثر فأكثر إلى غير رباط!

وقد تعرضنا في هذه الأكتوبة بأهم ما يتوكأ عليه المفسر المعاصر في ترجمة القرآن الكريم، و هي بالخلاصة أن يكون على مستوى من المعرفة للمفاتيح العلمية، وأن يكون له كتب كافية في العلوم يستند إليها للتزود في تحليل كل مسألة يتعرض لها، وأن يكون على تواضع حتم ينطلق منه لسؤال أهل الذكر عمّا خفي عليه من مسائل القرآن، و يحافظ عند التفسير على ما يتبع الناس مراعيا آداب الترجمة السليمة.

## المراجع و التعاليق


[1]- إدريس، إسماعيل الحاج، *التفسير في كنو*، بحث مقدم إلى قسم الدراسات الإسلامية بجامعة بايرو- كنو، لنيل شهادة الماجستير، (ص/38)

[2]-ابن فودي، *إيداع النسوح من أخذت عنه من الشيخ*، مطبوع في مجلة الوثائق والمخطوطات، السنة الثانية- العدد الثاني،1987م، (ص/382)

[3]- محمد بل، شفاء الأسقام في ذكر مدارك الأحكام، مخطوط.

[4]- ابن فودي عثمان بن محمد، *حصن الأفهام من حيوش الأوهام*، تحقيق الدكتور فضل الرحمن الصديقي، كانو: مطبعة كوالبني، ط الأولى، 1490هـ-1989م، (ص/130-134)

[5]- محمد بل، *إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور*، (ص/210)

[6]- عبد الله بن القاضي الحاج، تعريف شيخ شيخنا شيخ الإسلام أبي عبد الرحمن مصطفى بن محمد النورودي، تحقيق الدكتور عمر بللو، (ص/2)

[7] - أخرج البخاري و مسلم

[8] – أخرجه البخاري و مسلم

[9] – ابن حجر، فتح الباري: (31/1)

[10] – ابن حجر، *الإصابة في تمييز الصحابة*، (334/2) و قال:"وأخرج الزبير بسند له– به.

[11] – ابن الجزري، *غاية النهاية في طبقات القراء*: (441/2)

[12]– ابن نديم، محمد بن إسحاق: *الفهرست*، بيروت:دار المعرفة، 1398ه – 1978م، (ص/99)

[13]– علي أبوبكر، *الثقافة العربية في نيجيريا*، (ص/164)

[14]– علي أبوبكر، *الثقافة العربية في نيجيريا*، (ص/172)

[15]– علي أبوبكر، *الثقافة العربية في نيجيريا*، (ص/182)

[16]–حسن، إسماعيل إدريس، النزعة العقلية و السياسية في التفسير عند علماء كنو، كنو: دار الأمة، ط الأولى، 1431هـ2010م، (ص/66)

[17]- حسن، إسماعيل إدريس، النزعة العقلية و السياسية في التفسير عند علماء كنو، (ص/173)

[18]–A. Murtala, *The Illussion of Innovators: An Appraisal of Malam Sa'adu Zungur's Poem against Bid'ah*, Collected for publishing in the Kakaki, Department of Nigerian Languages and Linguistic, BUK.

[19]– وفي أكتوبة أخرى لي باسم "*ترجمات القرآن الكريم و تفاسيره باللغات المحلية في نيجيريا: صور من مساهمات علماء بلاد الهوسا*" بحث مفيض عن كل التفاسير المؤلفة بلغة الهوسا، مقدم في الندوة الدولية بعنوان "تعليم اللغة العربية و التربية الإسلامية في دول الساحل الإفريقي"، نظمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة و العلوم (أليكسو) بالتعاون مع منظمة الدعوة الإسلامية العالمية–ليبيا، و جامعة بايرو– كنو، بتاريخ 29–يوليو2002م– 1423هـ.

[20]- See: Usman Sani Abbas, *Trends of tafsir Among Selected 'Ulama in Northern Nigeria*, unpublished Phd thesis submitted to the Department of Islamic Studies, BUK, 2007

[21]- Paden, John,Religion and Political Culture in Kano, Los Angeles: Berkeley 1973

[22] -Paden, John N., Ahmadu Bello Sardauna of Sakoto: Values and Leadership in Nigeria, Zaria: Hudahuda,1986, p.552

[23]-محمد: 16. و نظائرها في قوله تعالى:"يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول"- هود:91، و قال: "أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا"-الفرقان: 44، وقال:"ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون"- الأعراف:179.

[24]- الأنفال:23

[25]- ابن تيمية، *القاعدة المراكشية*،: (ص/4)، و *الفتاوى* له، (74/10)

[26]- ابن رشد الجد، *البيان و التحصيل*، (17/

[27]- الجمعة: 2

[28]- النحل: 44

[29]- الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف، *المنتقى شرح موطأ الإمام مالك بن أنس*، مصر: مطبعة السعادة، ط الأولى 1332هـ، (183/5)

[30]- بن الجوزى، أبو الفرج عبدالرحمن علي، *صيد الخاطر*، تحقيق محمد عبد الرحيم، بيروت: دار لفكر،ط الأولي،1422هـ ـ2002م (ص/277)

[31]-علقه البخاري في صحيحه (59/1). و عزاه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (225/1) إلى آدم بن أبي إياس في كتاب العلم، و أبي نعيم في المستخرج.

[32]- ابن عبد الهادي، محمد بن أحمد المقدسي، *عقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية*، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكاتب العربي، (ص/42-43)، و قارنه مع ابن القيم، إعلام الموقعين (15/1)

[33]- ذكرتُ أمثلة مما تضمنه تفسير الجلالين من الروايات الموضوعة في بحث آخر بعنوان: "تأملات في تفسير أهل البدع: مزايا و عوائر"، مخطوط.

[34]- لاشين، موسى شاهين، *الآلئ الحسان في علوم القرآن*، مصر: دار الشروق، ط الأولى، 1423هـ-2002م، (ص/330)

[35]-الندوي أبو الحسن علي الحسني، *روائع إقبال*، الهند: المجمع الإسلامي العلمي، ط الرابعة، 1401هـ-1981م، (ص/52)

[36]- غافر: ٢٣ - ٢٥

[37]- البقرة: ٤٩

[38]- الأعراف: ١٤١

[39]- إبراهيم: ٦

[40]- كتبتُ أكتوبة عن "*البعد المعرفي في أسماء السور القرآنية*" تحدثت فيه عن شمولية القرآن من هذه الناحية.

[41]- الشاطبي، الموافقات: (1/77-85)

[42]-ابن تيمية، *تفسير سورة الإخلاص*، (ص/144-146)

[43]- أخرجه عبد الرزاق في المصنف: (5988)

[44]- نقله ابن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، (1/7)

[45]- ابن أبي حاتم فيما ذكر ابن كثير في تفسيره عند تفسير الآيتين (36) و (37) من سورة المائدة ، ولكن من حديث جابر بن عبد الله .

[46]- الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله، *البرهان في علوم القرآن*، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، بيروت: دار المعرفة، 1391م، (1/36)

[47] الزركشي، البرهان: (1/36)

[48]- البقرة:282

[49]- ابن جرير، *جامع البيان*، (3/187)

[50]- العجلوني، *كشف الخفا*، (2346/220/2)، والحديث المستفاد منه موضوع أيضا، أخرجه أبو نعيم في الحلية (15/10). و قد بحثت عن هذه القضية مشبعا في أكتوبة مفردة باسم: "*تأملات في المنامات و المكاشفات*"- ما زال مخطوطا.

[51] - الغماري عبد الله بن الصديق، *بدع التفاسير*، (ص/11و72)

[52] - ابن جرير، التفسير، و القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (7/22)

[53]- أخرجه البخاري (3350/387/6-الفتح)

[54]- هود: ٧١

[55]- راجع تفسير *الطبري*، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر (392/15)

[56]- ابن جزي، *التسهيل لعلوم التنزيل*، (3/2)

[57] - ابن فودي عبد الله، *ضياء التأويل في معاني التنزيل*، (224/4)

[58]- أخرجه النحاس في *الناسخ و المنسوخ* (ص/49)، و البيهقي في السنن (117/10)

[59]- السيوطي، *الاتقان* في علوم القرآن،(29/1)

[60]- السيوطي، الاتقان:(29/1)

[61]- أخرجه ابن عدي في *الكامل في ضعفاء الرجال*، (212/1)

[62]- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الاتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ- 1974م، (199/4)

[63]- ابن الجوزي، *أخبار الظراف و المتماجنين*، مراجعة و تقديم طه عبد الرؤوف سعد، مصر: مكتبة الأزهرية للتراث، (ص/89)

[64]- الفرقان 30.

[65]- ابنالقيم،*الفوائد*، (ص/83)